

وحدة مترابطة من حقائق التاريخ . فهو يرى أنه في كل ميادين البحث قد صار للتعظيم قيمة عظيمة ، وبذلك جهود الخروج من حيز الحقائق الجزئية إلى المعاني العامة بينما لا يرى أنراً لذلك في التاريخ ، فهم المؤرخين في نظره هو سرد الحقائق ، ولذا يرى أنه أصبح من السهل على كل مكسأل لا يحسن التفكير قراءة بضعة كتب ليصير مؤرخاً . ويرى (بكل) أن أعمال الإنسان ما زالت ترسف في أغلال القوى الروحية ، فلا يمكن وجدان سبب أو نتيجة ؛ ويقول لقد وجدنا في ناحية مهمة من الأعمال الإنسانية قوانين طبيعية ، لا سيما في ميدان الاقتصاد السياسي ، فقد فسرت لنا قوانين الاقتصاد الأزمت التي كانت تقع في الماضي . ويتسائل (بكل) : لماذا لا نجد قوانين لأعمال الإنسان الأخرى . يرى أن هناك عوامل كالتركز الجغرافي والجو والتربة والوسط الاجتماعي تحدد أعمال الإنسان ، ويعزو تقدم البشرية إلى العقل لا إلى العاطفة والأخلاق^(١)

ومن أهم من قال بوجود قوانين للتاريخ فيسيولوجي أمريكي (دريبر J. W. Draper) . ففي تاريخه « نحو أوروبا العقلي »^(٢) يمثل المجتمع بالفرد ويرى أن التقدم الاجتماعي خاضع لقوانين طبيعية كالنمو الجسدي ، لحياة الفرد ما هي إلا تفسير حياة الشعب . والإنسان لها طفولتها وشبابها وكهولتها وهرمها . هذه المحاولة من جانب المؤرخين لوضع التاريخ في مصاف العلوم ، ناشئة عن أن الاستقراء والتجريب قد شملوا كل العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر . والاستقراء والتجريب لا يمكن تحقيقهما في التاريخ ، لأن العلم الطبيعي يبحث في أشياء هي في متناول الإنسان يستطيع أن يلقبها على وجوهها المختلفة ويجري تجاربه كما يريد . فالعلوم الوصفية والطبيعية دقيقة لأن البحث فيها موضوعي صرف . أما التاريخ فهو من العلوم الإنسانية ، وكل العلوم الإنسانية غير دقيقة لأن حياة الإنسان لا يمكن قياسها ولا وصفها بنفس الدقة التي نستطيعها في العلوم الوصفية ، فنحن لا نستطيع قياس عقلية الإنسان ولا عواطفه ولا معلوماته قياساً دقيقاً . بل وأكثر من هذا أن كلامنا لا يستطيع أن يتعرف ما في نفوس الذين يشاركونه الميعة ، فنحن كما يقول برسي ناث Percy Nunn في كتابه :

(١) انظر : Bury : The Idea of Progress : ص ٣٠٩ وما بعدها

(٢) History of the Intellectual Development of Europe .

ظهر هذا الكتاب في سنة ١٨٦٤

تاريخ التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

(تمة ما نشر في العدد الماضي)

هل التاريخ علم ؟

يرى بعض المفكرين أن للتاريخ قوانينه الطبيعية ، وقامت محاولات للوصول إلى معرفة هذه القوانين ، وتوالت نظريات مختلفة : فهناك النظرية الدينية التي سادت في المصور الوسطى ، وهناك نظرية التقدم والنمو ، وهناك محاولات باتستا Battista ومنسكيو وغيرها ؛ وهناك نظرية كارليل التي تقول بأن الأبطال وحدهم هم الذين يغيرون مجرى التاريخ ؛ ونظرية هيل Hegel التي تجعل الدين مفتاح التطور والنمو ؛ فاليهودية - في نظره - تمثل الواجب ، والكونفوشية تمثل النظام ، والبوذية الصبر ، والمسيحية الحب ، والإسلام العدالة

ولقد تعرض أوجست كنت لتفسير قوانين التطور ، فقال : إن التاريخ تفسره الأفكار ؛ فالإنسان مر خلاله في ثلاث مراحل ، المرحلة الأولى مرحلة تفسير الظواهر الطبيعية بأنها ناشئة من عمل آلهة خياليين ؛ ثم مرحلة تفسير هذه الظواهر بمعنويات مجردة ، والأخيرة محاولة فهمها بالطرق العلمية ، بالملاحظة والتجريب

ولما وضع كارل ماركس نظريته المادية في تفسير التاريخ قال : إن تطور الجماعة متوقف على الظروف الاقتصادية وحدها . ولقد بنى ماركس نظريته على أساس فكرة كفاح الطبقات في سبيل الرقي المادي ، ذلك الكفاح الذي ينتهي ، في نظره ، بانتصار الطبقة الأكثر عدداً والأسوأ حالاً على طبقة المترين القليلة العدد . ويسمى ماركس ذلك قانون التطور الاجتماعي ، وبطل ذلك التطور مستمراً حتى يتلاءم نظام الملكية مع نظام الإنتاج ، أي إلى ذلك الوقت الذي تصير فيه الملكية اشتراكية وتنتصر فيه طبقة العمال انتصاراً حاسماً . ولقد سبق كارل ماركس إلى الإشادة بأهمية العوامل الاقتصادية آدم سميث وأتباعه من أمثال ريكاردو وجاء (بكل Buckle) في كتابه « تاريخ التقدم في إنجلترا » ينحى باللائمة على المؤرخين لأنه لم يجد أحداً منهم أهتم بإيجاد

فتغير الموقف وليس للانسان دخل فيها؛ ولكن بالرغم من ذلك هناك تطور وتقدم في الحياة لا يمكن مدافعتة . وكما يرى جيبون Gibbon بأن لكل : سر قيمته في زيادة ثروة الجنس الإنساني وسعادته ونواحي فضائله : فالإنسان في القديم عارى الجسم والعقل لا يعرف قانوناً ولا فناً ولا أفكاراً . ثم تحسنت حالته فعمل في الأرض وطوف في أرجاء المحيط واستثمر قواه الجسمية والعقلية كما استثمر قوى الطبيعة وذلك لنفسه . ثم إن كثيراً من الصناعات السابقة قائمة على النقص وعدم الكمال الإنساني . ويجب ألا نبالغ فيها ، ففكرة الناقدين والباحثين قد أظهرت إلى حد كبير ما هو صحيح وما هو خطأ ، أو هي على الأقل تحاول ذلك . ولذلك لا محل للاعتقاد بأن التاريخ ما هو إلا جملة خرافات أجمع الناس على تصديقها . والواقع أننا نجد لمعظم عصور الماضي آثاراً خالدة مادية وروحية لا يمكن الطعن فيها . ومنها ما هو في أنفسنا وتقاليدنا وعقائدنا وتقاليدنا .

التاريخ فن وعلم وفلسفة : فهو فن وفلسفة من حيث أنه يستلزم من المؤرخ معرفة واسعة بنواحي الثقافة وبأمور العالم ، وقدرة على اللغة والتعبير والتصوير . فاللورخ كالمصور أمامه الحياة الاجتماعية وعليه هو وضع صور لها . وكما أن المصور يصور الناحية الطبيعية التي تروقه بالطريقة التي يرضاها ، فكذلك المؤرخ . والتاريخ علم من حيث أنه قائم على أسس صحيحة في البحث والتفكير في المصادر الأصلية والوثائق ومقارنتها ومناقشتها والحكم عليها . وطريقة البحث في التاريخ ولو أنها علمية إلا أنها في ذات الوقت فنية وشخصية ، لأن دراسة التاريخ ليس معناها كشف الماضي بحسب وإنما تقدير الماضي ، فلا بد من إحساس بنى الإنسان بشعور خاص عند دراستهم للانسان . فهل هم إلا أبناء وورثته أ

محمد مصطفى صفوت

« الترية ... » كجزائر منفصلة يفصلها بحر لا يمكن عبوره ، وأن وسيلة التفاهم بيننا وهي اللغة غير كافية ، فشتان بين ما يجده الإنسان في نفسه وبين ما يصنعه للغير . فكيف إذن يعرف الإنسان ما في نفوس الناس الذين مضوا ، وكيف يقدر الدوافع لأصمهم والظروف التي قامت فيها هذه الأعمال . ثم إن الإنسان من جهة أخرى يفسر أعمال الناس وفق شخصيته ومزاجه وثقافته لا يرى في الأشياء إلا ما يجب أو ما يستطيع أن يراه فيها . فقد يرى المؤرخ في عمل ما العظمة وما هو بمظلم ، وذلك لتأثره بطريقة لا شعورية بشخصية من قام بذلك العمل . ومن جهة ثالثة هل لدينا مقاييس ثابتة تحكم بها على أعمال الناس ؟ هل تقيس هذه الأعمال بحسب الشخص لذاته أو بحسب الآخرين أو برغبته في أداء الواجب . الواقع ليس هناك مقياس متفق عليه . وكيف نفسر الحوادث بمنطق العقل أم بمنطق الجموع أم بمنطق الدين ؟ ثم بعد ذلك هل من الممكن في تقدير أعمال الناس في الماضي أن نفصل بين ما ورثه الإنسان من آباءه وأجداده وبين ما اكتسبه من بيئته ؟

التاريخ يدرس حقائق الإنسانية الماضية ، هذه الحقائق ليست في متناول أيدينا ، وهي لن تعود مرة أخرى . ثم هي مجرد آثار ومخلوقات تعطينا فكرة عامة ، وعليتنا نحن تكميل التفاصيل باستعمال الخيال . فهناك فعلاً حلقات مفقودة في التاريخ . وكثير من الحقائق المهمة قد عفا دون أن يترك وراءه أثر . ثم من الذي كتب أو أنشأ هذه الآثار ؟ أليسوا من بنى الإنسان لهم ميولهم وأغراضهم الخاصة ومصادر التاريخ فوق ذلك لا تستلزم معرفة بالتاريخ بحسب ، بل معرفة تامة باللغات وطرق الكتابة والسياسة والاقتصاد والاجتماع مما جعل البحث في التاريخ صعباً .

ويظهر أن محاولات بعض المفكرين لوضع قوانين للتاريخ لم تنجح تماماً ، فالنظريات مختلفة ، حتى نظرية التقدم لا زالت طائفة محترمة من المفكرين ترفضها لاسيما في النواحي الروحية . والديانات تحدثنا بأن الإنسان خرج من حياة نيم دائم وعيش موفق إلى حياة كلها نيب وشقاء لا ينتهى . ثم ما الذي يدرينا أن العالم لا يزال في شبابه أو هو في طريق الفناء . وكثير من حوادث التاريخ بعد ذلك قائمة على الصدف لا دخل لإرادة الإنسان فيها ولا يمكن تعليلها . ويرد على هذه الاعتراضات بالقول إن هناك ظروفًا تقع

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٩ - ٧ - ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٤٦ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد رزق محمد رزق الصاوي بالحبس ثلاثة شهور شغل والنفاذ والمصادرة والتعليق على مركز البوليس والنفير على مصاريفه ليمه أقشة بسر أزيد من المهدد بالنسبة

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ - ٧ - ١٩٤٢ في القضية رقم ١١٨٢ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد إبراهيم علي الصرافوي ش ١٦ بماله المحمدية بالفرامة ٢ جنيتين وغلق المحل أربعة أيام والتعليق على محل التهم ومركز البوليس والنفير على مصاريفه ليمه بسر أزيد من المهدد بالنسبة